الصاغ محمود محمد العزبي

شاعر يفتح له المستقبل ذراعيه !

وادع النفس ، طيب القلب . يميل الى الصمت أكثر مما يميل الى السفسطة .

خير صفة تنطبق عليه كلمة «وقور» . وان كان لا يعدم أن يشترك يوماً فى دوائر المرح والمتاع . .

لا يشغل أمره بغيره أو بعبارة أخرى لا يدفع بصره وراء الآخرين يستطلع أنباءهم ونواياهم . وانما ينصرف الى نفسه وواجبه واليهما يبذل جهده ويسخر فكره

هذا الشاعر الشاب . . مفرط فى الخيال ، مغرق فى التفكير . . معتد بنفسه ، فخور بشاعريته بل وانتاجه . ولعل هذا مرده الى تتبعه لآثار الأولى من الشعراء الذين توارروا فى الفجر

قرأ ودرس ، بحث ونقب فى خفايا الماضى وعكف على الفحص والمراجعة . . يشجعه على الاستمرار فى ذلك صبره على التذوق والتعمق . .

يميل في سيره الى القفز والعدو ! فهو يتصف بالتوثب والسعي الدائب

طرق جميع أبواب الشعر كما يزعم .. وان لم ينظم في جميع بحوره وقوافيه !

استهل سبيله الشعرى ولم يبارح بعد السادسة عشرة .. فتنشر له احدى المجلات قصيدة في صدر صفحاتها . . فيرقص لها الشاعر الصغير طربا . .

ويمل في ميسور فتى مثله أن يكتم اعجابه بنشر أول قصيدة له موقعة باسمه !

ولست بصدد نقلها وان كنت لا أنسى اسمها «الشمس» فهى قصيدة لا تعتبر أكثر من محاولة لمبتدىء يستحق عليها تصفيق المشجعين لا ثناء المعجبين !!

وذهب يستوعب ما يصل الى يده من دواوين أعلام الشعر ، ليأخذ بأسباب القوة . ويغتذى من الذخائر والمؤن التى لا يقوم عليها حارس ما

وعندما دعم رأسه وصقل شاعريته . . طفق صوته يتعالى فى الافق ، لا ليتردد فى عرض الفضاء ، وانما ليخلف أثراً فى الآذان المصغية فحسب . وكان أن تسرب الى الصحف فى عام ١٩٢٩

وماذا يكون من أمر شاعر شاب إلا أن ينحو ناحية الغزل . . سواء أهدف الى الطبيعة أم غيرها ! وظل كذلك الى أن جاز أبواب الكلية الحربية الملكية وتخرج فيها ضابطاً فى عام ١٩٣١ . فاشتغل بمستقبله حيناً وبالألعاب الرياضية حيناً آخر .

أربع سنوات تقضت ، وهو منصرف عن الشعر . أو الشعر منصرف عنه . . فلا يلق شيطانه ! الى أن عاوده الحنين . . فعاود سيرته الأولى .

والشاعر عندما ينفض يديه من صوغ المعانى لعلة طارئة لا يصدأ اناءه — على ما يخيل للبعض — ذلك لأن الشاعر الصامت يظل يترنم بالقصيد لنفسه وان لم تنطق به شفتاه .

ولهذا لم يلبث شاعرنا يوم أن ارتد الى القريض أن استكمل ما كان قد بدأه من قبل . ولعل هذه الفترة على طولها كانت فترة استجمام ودرس ، لأن نجم « الشاذلى » بزغ فجأة بدرجة جعلته منافساً يحسب حسابه غيره من شعراء الجيش !

و« الفاروق » هو مبعث الوحى للشعراء الضباط ولهذا كان نصيب شاعرنا من مديح جلالته موفورا .. ولنرجع الى ما قاله فى عيد الميلاد الملكى لعام ١٩٤٣ .

وحى العيد

ما للقوافى الشاردات أسارى ... والوحى أقبل طيعا مختارا
ما للنجوم قد انتظمن قصائدا ... فيها المعانى النيرات عذارى
عيد المليك بدا فأودع منطقى ... سحرا يفيض عذوبة ووقارا
من مهجتى صغت الولاء لقائدى الـ ... أعلى نشيدا يلهم القيثارا
سطرته بدمى فرتله فمى ... نغما يعلم شدوه الأطيارا
منن المليك سطعن فى جيد العلا ... درا نظمت عقودها أشعارا
ملكت على النفس حتى أننى ... أطلقتها فإذا النفوس سكارى

* * *

أهلا بميلاد المليك وحبذا ... يوم به وجه الزمان أنارا
يوم به اكتسب الربيع جماله ... لما اكتسى من نوره نوارا

يوم يتوج فى الدهور بهالة ... من نور فاروق فليس يبارى
بسمات وجه السعد يوم قدومه ... جعلت ظلام الليل عنه توارى
عيد الحياة بعيده وبعوده ... تجد السنين به تطوف حيارى
ميلاد فاروق ومهد شروقه ... يهب الصباح بيمنه الأنوارا
نور المليك وقد تألق فى الحمى ... لو شع فى ليل لعاد نهارا
يا شعلة منه استضاء وميضها ... فغدت لمن ضل السبيل منارا
هو نفحة الإيمان تبعث فى النهى ... عزما وتبنى للبلاد فخارا
فى النهضة الكبرى سما ميلاده ... فتفاءل الوادى به استبشارا
وأضاء الاستقلال فى تتويجه ... وتقدمت مصر به الأمصارا

ولا ينس زيارة المليك لأرض الحجاز وزيارته قبر الرسول عليه الصلاة والسلام فيقول مسجلا هذا الأيام ...

يا قاصدا أرض الحجاز ميممًا ... خير الأنام وصحبه الأطهارا
وقلوب أبناء الحجاز تكاد من ... قبل العيون إلى اللقا تتبارى
لما قدمت حمى (المدينة) زائرا ... حفت ملائكة السما زوارا
هى روضة الهادى وجنته التى ... قد بوركت للعالمين مزارا
صليت فى محراب أحمد خاشعا ... تدعو الكريم الواحد القهارا
تدعو المهيمن أن يبارك أمة ... عزت بملكك أربعا وديارا
والشعب يدعو أن تدوم لملكه ... تاجا يسامى عرشه الأقمارا
ورأى بك العرب الكرام من التقى ... غيثا كريما يغدق الأمطارا
هطل السحاب على (المدينة) عندما ... أرسلت جودك نحوهم مدرارا

كانت زيارتكم لأرض المصطفى ... عهدا يجدد للإخاء شعارا
جاهدت فى ضم الصفوف ولم تزل ... تبنى لصون كيانها الأسوارا
يا حبذا الملكان يوم تعهدا ... شأن العروبة موثقاً وذمارا
ملكان يلتقيان فى (رضوى) على ... خير الصلاة أخوة وجوارا
فازت بفضلك للوئام قضية ... أجرى الإله لفوزها الأقدارا

* * *

هذا هو الجيش الذى استعرضته ... يهدى الثناء إليك والاكبارا
يهدى الولاء إلى الذى دانت له ... جند العروبة طاعة أحرارا
جيش بلغت به السماء مكانة ... قد كاد يتخذ الكواكب دارا
أنبت فى ضباطه وجنوده ... همماً تخوض النيرات غمارا
لبسوا حميتهم دروعاً وارتدوا ... صدق العزيمة واليقين دثارا
بلغت حماستهم ببرك موقفا ... سيديهم عند الحمى أبرارا
والشكر فى إنصافهم يتلونه ... سراً فيرويه الزمان جهارا
كم زرت نادينا فكنت له سنا ... وحللت وادينا فزاد فخارا
القائد الأعلى لمصر مليكها ... طابت به شرفاً وطاب نجارا

* * *

مولاى إن عجز البيان عن المدى ... فالعجز شكر إن غدا إقرارا
أثنت عليك صفات مجدك إنها ... أوفى وأبلغ فى البيان قرارا
مولاى دمت لكل عيد وليدم ... عهد الولاء نعيده تكرارا
نحن الجنود قد اتخذنا حبنا ... لك بعد رب العالمين شعارا

وشاعرنا كجندى كان لزاما عليه أن يتحدث عن الحرب يصف المعارك. ولكن أنى له هذا وهو لم يساهم فى القتال بعد ! ؟

فإذا كان قد عز المنال .. فان فى الحرب التى اكتوى العالم بنارها موردا خصباً لشاعريته . فراح يستمد من أنباء القتال المروع حول برلين مادة خليقة لشعره فيقول فى صراع برلين ومصرعها . .

مصابك يا برلين قد جاوز القدرا ... ولم تشهد الدنيا كمحنتك الكبرى
سكرت بكأس النصر فى نشوة الضحى ... فأمسيت فى البلوى بكأس الردى سكرى
بلغت تمام البدر ثم طغى الدجى ... عليك فما استكملت من ضوئه الشهرا
وأملت فى (النسر) العلاء فلم يدع ... لك الدهر فى العلياء نسراً ولا طيرا
ألم تزعمى الدنيا لبأسك أذعنت ... وأنك قد أرهبت من بطشك الدهرا
ألم تعلنى أن الزمـــان مطاوع ... كما شئت لا يعصى لقادتك الأمرا
ألم تبعثى فى الغرب والشرق صيحة ... مدوية لم تبق أمناً ولا يسرا
مددت بأوربا شباكا تحوطها ... فأمست وكل الناس فى أرضها أسرى
بعثت لهولندا هجومك خاطفاً ... وأخضعت هولندا وجارتها الأخرى
وأمعنت فى باريس وبعد بروكسل ... بلاء يسد الجو والبحر والبرا
وأنفذت فى البلقان أسداً ضراغماً ... يثيرون فيها الويل والهول والذعرا
وأرسلت فى ليبيا على البحر أمة ... من الجند يحكى سيل أفواجها البحرا
توغلت فيها واحة بعد واحة ... وزلزلت فيها الغاب والبيد والقفرا
دنوت من العمران والنيل أشهرا ... وأزعجت فينا من دعاياتك القطرا
أغرت على مصر وأمطرت أرضها ... حمما ونيرانا سحائبها تترى
وها هى مصر قد رعى الله شعبها ... تبارك من أولى عنايته مصرا

وأمضيت نحو الروس جيشا عرمرماً ... أحاط بموسكو واستطار بها شرا
وحطمت فى روسيا المدائن والقرى ... وأضرمت فى عمرانها النار والجمرا
وحاصرت بالقوقاز أرضاً خصيبة ... تفيض حقول (الغاز) تحت الثرى تبرا
وخلفت فيها مأتماً بعد مأتم ... يموج بحارا من دماء الورى حمرا
وألفت والطليان والصفر (محوراً) ... فلم يدفعوا فى الحرب أعداءك (الحمرا)
كأن لهذا (الدب) ناباً ومخلباً ... تخاف أسود الغاب منه إذا استشرى
فأمعن فى (النسر) المهيض مذابحا ... فأسرعت يا برلين من أرضه فرا
تقدمت عدوانا . وأحجمت ذلة ... ولم تعرف إلا المآثم والجورا
فخربت عمرانا وأزهقت أنفساً ... ولم تنشدى عدلا ولم ترحمى برا
بلاياك فى كر وفر عديدة ... فلم تحسنى فرا ولم تحسنى كرا
أداتك كالمنشار يقطع جيئة ... ويفرى ذهابا. ليس يألو الورى بترا

* * *

فإذا ما انتهت الحرب، وجاء ختام المحنة الكبرى ، راح الشاعر الوصاف يستلهم آلهة الشعر وصفا لأوزار الحرب دون أن ينسى أولئك الذين فقدوا أرواحهم من أجل شيء واحد هو منع الطغاة عن امتلاك الأرض واستعباد الناس.. أولئك الذين ماتو فى سبيل قضية الحق . ولكن أين هو الحق الذى فقدوا أرواحهم لأجله !!

دعاة الحرب قد وضعوا الحساما ... فحيوا يا بنى الأمم السلاما
ختام المحنة الكبرى سلام ... فما أحلاه للبلوى ختاما
تردده أغانى النصر نشوى ... وتنشره على الزهر ابتساما
وترقبه الجيوش بكل أرض ... لتسعد فى مواطنها مقاما

وتنقطع المدافع عن هزيم ... وكانت تلفظ الموت الزؤاما
وتهبط فى المطار نسور جو ... على الغبراء أمطرت الحماما
وترسو فى الموانى غائصات ... وتلقى بعد رحلتها الزماما
وكانت ترسل النيران موجا ... كموج البحر تبعثه سهاما
فنابلها من الأعماق أعدى ... من الحيتان فى البحر التهاما

* * *

إياب السلم أثلج كل صدر ... وضمد من بشائره الكلام
وخفف لوعة ومحا بلاء ... وجفف أدمعا كانت سجاما
فأشرقت الثغور عن ابتسام ... طواه اليأس أعواما جماما
وحلت ضجة الأفراح جهراً ... وكان الهمس بالشكوى حراما
وعاد القوم بالبشرى نشاوى ... كأن الفوز طاب لهم مداما
فيا طير السلام أعد علينا ... نشيداً كالصبا يروى الأواما
وميلى ياغصون ، واسعدينا ... بطيب شذاك يا ريح الخزامى
ويا فجر المنى أشرق بنور ... تزيل به عن الكون الظلاما

إلى أن قال :

ألا فلتنحنى الهامات حمداً ... واعظاماً وشكراً واحتشاما
لأرواح الضحايا حيث ماتوا ... وقد كتبوا لمجدهم الدواما
إلى الجرحى ، إلى الثكلى ... عزاء ، إلى دمع الأرامل واليتامى
مقام المجد قد نالوا ذراه ... وروض الخلد طاب لهم مقاما
سلام الله أبعثه إليهم ... فقد صانوا على الأرض السلام

ولم يكن بوسع الشاعر أن ينأى بعواطفه .. عن لقاء عاهلين .. هما أكبر دعامتى الاسلام .. الفاروق وعبد العزيز آل سعود ..

فأنشد فى هذا اللقاء قطعة من قطعه المحببة إلى النفوس ، والتى تنفذ إلى القلوب . وتستقر فى موضع الأحاسيس !

العيد عيدكما فأين المنشد ؟ أزجى له الأشعار وهو يغرد
يا عاهلين على القلوب تربعا قبل العروش ـــ لألفة لاتنفد
حان الاله لقاكما فى أرضنا من عين من حسدوا ومن لايحسدوا
الله أكبر . وهو أكرم حافظ لعلاكما ، يرعاكما ويؤيد

* * *

ياضيف مصر وياصديق مليكها أو ما سمعت الشعب كيف يمجد
طافت به النفحات من أرض الهدى فأجاد شاعره وشاد المنشد
وأضاء وادى النيل فوق ضيائه فكأنه من نوركم يتزود
واخضرت الأشجار قبل أوانها وتعانقت أغصانها تتأود
وعلا غناء العندليب وشدوه والبلبل الصداح وهو يغرد
وتماثل الوادى بمقدم زائر المجد فى أعطافه والسؤدد
من كعبة الله الحرام وأرضه ومن المدينة حيث يعلو المسجد
أقبلت باليمن الجزيل فمرحبا بمن اعتلى عرشاً بناه محمد

ومضى يترنم إلى أن قال :

يا سيد العرب الكرام وعاهل الـ ـبلد الحرام لأنت نعم السيد

كرم الآله حباك بالنعم التى ... تروى على مر الزمان وتشهد
وتنافست فيك الصفات كرامة ... فجليلها لعظيمها يتـــودد
فى العدل أو فى الفضل أو فى النبل أو ... فى البذل أمثال لمن يتفقد
ملك له فى كل آن منة ... شماء أعلا أن تطاولها يد
بالسيف أنقذت الرياض وبالحجا ... أمن الحجيج فليس ثم مهدد
أصلحت أحوال الحجاز بهمة ... وعزيمة ، وبحكمة لا تجحـد
وسرى كتاب الله فى أحكامه ... شرعاً يؤيده النبى محمـــد
عاشت بمجدك نجد عالية الذرى ... تبنى الرقى لشعبها وتجدد
مازلت ترقى بالحجاز إلى السها ... حتى ينال من العلا ما ينشد
ولتحى بالفاروق مصر عزيزة ... وبعرشه السامى تفوز وتسعد

أما أن الشاعر يميل الى التفاخر ، أو أن التفاخر يجرى فى دمه . فهذا مما لا مرية فيه . فأجداده يمتون بصلة الى قبيلة بنى عدنان ، وقد نزحوا من الحجاز الى مصر . . واستوطنوا كفر الزيات . وكان ميلاده فى سوهاج فى عام ١٩١١

وفى هذا المعنى . . يصيح بلهجة العظمة والكبرياء :

فى مولد الهادى ولدت فطاولت ... أيام ميلادى أغر زمان
بمحمد عزت مطالع مولدى ... وتباركت بمشيئة الرحمن
وبأرض سوهاج نبت فأصبحت ... تزهى بمولد شاعر فنـان !

ويظل مستأثراً بهذا التفاخر . . حتى ينتهى قوله فى آله :

تلقى من الشيب الوقار مع التقى ... وترى الجلاد المر فى الشبان

بشمائل التقوى تضيء وجوههم ... بالطهر والصلوات والايمان
يقضون آناء الليالى سجدا ... بتلاوة التفسير والقرآن
يعلو بهم نسب النبى وأصلهم ... عرب كرام من بنى عدنان
نزحوا الى أرض الكنانة هجرة ... واستوطنوا فى مصر خير مكان
فسرت كواكبهم لآفاق المنى ... ومشت مواكبهم بغير توانى
واذا القبائل فاخرت بأصولها ... وضعت علينا أفضل التيجان

والشاذلى . . رسام مجيد . . يرسم الحزن العميق . . والألم الهائل فى كلمات موسيقية !

فها هو ذا . . يثير ما فى الحنايا من ألوان التعاسة . . فى «صدى الاسى»

حمامة الايك هل يشجيك انشادى ... أم تطربين لنجوى ذلك الحادى
غنى حزين وقلبى كله شجن ... وذوب نفسى فداء البلبل الشادى
غنى فأذنى للحن الحزن مصغية ... والدمع فى الحزن مثل الماء للصادى
نوحى عليه وواسينى فذو كمد ... يسعى الى الحزن سعى الطفل للزاد

ويهفو الى الغناء والطرب .. وهذه هى إحدى قطعه الشعرية التى تدلل على مدى باعه فى هذا الصدد

«لولا القدر !»

لولا القضاء والقدر . . . . . — لو تعلمين !
لما التقى منا النظر . . . . . — هل تذكرين؟

هل تذكرى يوم اللقاء فى السفر
يوم التقينا وافترقنا فى الصور
لم يجر فى أذهاننا ما ينتظر
من كان يدرى ما يجيء القدر ؟

* * *

كنت مشغولا بشأنى عن هواك
كنت مشغولا بأقمار سواك
شارد الذهن كأنى لا أراك
أقطع الدنيا بحلمى يا ملاكى

* * *

وافترقنا فالتقينا فى سماوات الخلود
حام قلبانا سويا فوق أفلاك الوجود
فأتى الحب الينا من قريب أو بعيد
ليس للحب شهود أو قيود أو حدود

* * *

كتب الحب علينا وصفارا لم نزل
ودنا الحظ الينا باسما يحوى الأمل
ما لنا أو ما علينا لو بدأنا بالقبل ؟
إن من يمشى الهوينا سوف يحيا للأزل

فاذكري يوم الهدى ... يوم اجتمعنا في السفر
واذكري حين افترقنا ... فالتقينا في الفكر
واذكري لما ارتبطنا ... واندمجنا بالنظر
وارفعي كأس الهوى ... واشربي نخب القمر

والشاعر لا يتجاهل المناسبات الشائقة .. فنراه يلقي بقريحته في المعترك ولعل أظهر مناسبة تخيرها جيداً هي حفلة تكريم ضباط الجيش لسعادة الفريق ابراهيم عطاالله باشا رئيس هيئة أركان الحرب وياور جلالة الملك . فأنشد قصيدة أطلق عليها « عيد الجيش » وإني قد لا أجافي الصواب إذا قلت بأنها قطعة شعرية ممتعة أفرغ فيها كل ماأدخره من جهد

قال :

اليوم عيد الجيش بل عيد الحمى ... وافى السرور به وطاب العيش
يوم نمجد فيه أعظم قائد ... من حقه الإعظام والتمجيد
. . . . . .

وينتقل للحديث عن الوسام :

هذا الوسام لمصر قبلك إنه ... شرف لمصر وعزة ورصيد
أو ما ترى هذا الوسام شهادة ... لبلادنا — والعالمون شهود ؟
أو ما ترى هذا الوسام وثيقة ... للجيش فيها الفخر والتأييد ؟
والجيش عنوان الكرامة في الحمى ... وبه سلامة أرضنا وخلود
يكفيه من شرف بأن مليكنا ... (القائد الأعلى) .. ونحن جنود

إلى أن ينتهى بقوله :

فى ظل فاروق تعيش وتجتلى نعماً تدوم على المدى وتزيد

* * *

وقد طرق الشاعر باب الرثاء بأكثر من قصيدة . بيد أن قصيدة « مصرع الرائد » التى عدد فى سياقها مآثر المغفور له أحمد محمد حسنين باشا ومناقبه تأتى فى طليعة هذا النوع من نظمه :

جل المصاب فما يفيد رثائى يا خالدا بخلاله الشهداء

يا كاشف الواحات وهى مفاوز مجهولة من صفوة العلماء

عانيت فيها الزمهرير وقيظها ورمالها المسجورة الرمضاء

وركبت أجواز الفضاء بطائر فى موسم متدافع الأنواء

فى الرحلتين تحطمت الآتها فركبت للعليا جناح مضاء

يا لاعبا بالسيف فى جولاته حتف الخصوم ومصرع الأعداء

كم لاعب بالنار قد حطمته بصواعق من حيلة ودهاء

يا باسما وقت الشدائد دائما كالبدر يسطع فى دجى الظلماء

يا بلسم الأزمات كنت طبيبها أين الطبيب لصدمة عشواء ؟

ماذا دهاك وأنت أشجع رائد وأعز من أهدى اليه عزائى ؟

* * *

يا خالد الوثبات فى نهضاتنا أتراك تسكن بعد طول عناء

قد كان فيك الموت أمهر صائد يا خير صياد بغير مراء

قد كان من حسنين يختلس الخطا متسربلا فى قطرة من ماء

وكأن أحمد كان يرقب خطوه ويراه بين صبيحة ومساء

لقى الحمام كعهده مستبشرا فله من الرحمن خير لقاء

☆ ☆ ☆

يا قبر أحمد هل يؤمك زائر ... من صفوة العشراء والخلصاء ؟
قد كان بيتك فى حياتك كعبة ... للقاصدين وقبلة العظماء
قد كنت أوفى من يحوط ودادهم ... برعاية وعناية وإخاء
لو أنهم ذكروا حنانك نحوهم ... لتعلموا فى الموت بعض وفاء

☆ ☆ ☆

يرثيك نادى السيف وهو منكس ... لما دعاك فلم تجب لنداء
يرثيك رواد جمعت صفوفهم ... نحو الفخار لمصر والعلياء
يرثيك طيارو البلاد إذا انتطوا ... متن السحاب وهامة الجوزاء
يرثيك من لجأوا إليك فلم تحد ... عن عونهم بسماحة الكرماء
يرثيك أهل الفن إذ خلفتهم ... يرون للدنيا فنون بكاء
يبكى شباب الجيل فيك رجولة ... قد توجت بصحائف غراء
ترثيك أرض قد كشفت دروبها ... وجعلتها مذكورة الأسماء
ترثيك بل تبكيك مصر وشعبها ... والنيل إذ يجرى دموع وفاء

ويظل يتحدث بمآثر الفقيد العظيم سواء فى خدمة الوطن أو خدمة المليك حتى يقول :

فى جنة الله العلى وقربه ... تلق المثوبة فى نعيم بقاء

ومما مضى يتبدى لنا الشاذلى « شاعر اللواء » الذى يلهبه الطموح والأمل، فيدفع نفسه دفعاً لكى يصعد الدرج سريعاً .. ولعله بالغ مايصبو اليه يوماً ما ، قرب هذا اليوم أو بعد ! !